Tafsir Dergisi - Tafsir Journal

e-ISSN: 2792-078X

Cilt/Volume: 4, Sayı/Issue: 1 (Haziran/ June 2024): 55-64

Abbasi Edebiyatında Ahmaklık, Gaflet ve Delilik (İbnü'l-Cevzî ile İbn Habîb en-Nîsâbûrî Arasında Karşılaştırmalı Bir Çalışma)

الحمق والغفلة والجنون في الأدب العباسي

دراسة مقارنة بين ابن الجوزي وابن حبيب النيسابوري

Sawsan Alafyonı
Bilecik, Türkiye
e-mail: sawsanalafouni@gmail.com
https://orcid.org/0000-0001-5412-2407

Prof. Dr. İsmail Hakkı Sezer
Aksaray Üniversitesi,
e-mail: ismailhakkısezer@aksaray.edu.tr
https://orcid.org/0000-0002-1385-2013

Makale Bilgisi/Article Information
Araştırma Makalesi/Research Article
Geliş Tarihi/Received: 15.04.2024
Kabul Tarihi/Accepted: 25.05.2024
Yayın Tarihi/Pub Date: 30.6.2024

Atıf/Cite as
Sawsan, Alafyoni, Abbasi Edebiyatında Ahmaklık, Gaflet ve Delilik (İbnü'l-Cevzî ile İbn Habîb en-Nîsâbûrî Arasında Karşılaştırmalı Bir Çalışma), Tafsir Dergisi 4/1 (Haziran 2024), 55-64
Sawsan, Alafyoni الحمق والغفلة والجنون في الأدب العباسي دراسة مقارنة بين ابن الجوزي وابن حبيب النيسابوري Tafsir Journal 4/1 (June 2024), 55-64

İntihâl/Plagiarism
Bu makale, en az iki hakem tarafından incelendi ve intihâl içermediği teyit edildi/This article has been reviewed by at least two referees and scanned via a plagiarism software. Published by Tafsir Journal, Turkey.http://www.tafsirdergisi.com/index.php/tafsir/index
Bu eser Creative Commons Atıf-GayriTicari 4.0 Uluslararası Lisansı ile lisanslanmıştır

Abbasi Edebiyatında Ahmaklık, Gaflet ve Delilik
(İbnü'l-Cevzî ile İbn Habîb en-Nîsâbûrî Arasında Karşılaştırmalı Bir Çalışma)*

Öz
Ahmaklık, gaflet ve delilik edebiyatı Arap edebiyatında erken önemden itibaren var olan popüler edebiyat türlerinden biri olup Abbasi döneminde daha olgun bir şekil almaya başlamıştır. Bir yandan bu tanımlamalara sahip insanlara karşı hoşgörülü olunması, bir yandan da toplumdaki ahmaklık ve gafillik çemberinin genişlemesi, cahilleri, ahmakları ve delilik iddiasında bulunanları da kapsamaktadır. el-Câhiz (255/869), Ebu'l-Ferec el-İsfahânî (356/967) ve diğerleri gibi Abbasi yazarları, edebiyat ansiklopedilerinde bu kişilerin haberlerine önem vermişler ve İbn Ebi'd-Dünyâ ve İbnü'd-Darrâb gibi bazı alimler müstakil eserleri onlara ayırmışlardır. Bu olguyu araştıran ve inceleyen imamlar arasında iki büyük alim vardır. Bunlar, *Ahbâru'l-hamkâ ve'l-muğaffelîn* adlı kitabında genel olarak ahmaklar, gafiller ve delilerle ilgili haberleri ele alan Ebu'l-Ferec İbnü'l-Cevzî ve özel olarak ele alan İbn Habib en-Nîyâbûrî bunları "akıllı deliler" adlı kitabında kategorize etmiştir. Bu makale, Abbasi edebiyatında ahmaklık, gaflet ve delilik olgusunu hakikat ve iddia açısından aydınlatmaya çalışmakta ve İbnü'l-Cevzî ve İbn Habîb'in kitaplarında anlatıldığı şekliyle bazı detaylarıyla ele almaktadır. iki kitabın genel özellikleri, bölümleri, yazarların bunlara yaklaşımları ve yazma motivasyonları daha sonra iki kitaba eleştirel bir gözle bakmaya, edebi ve nesnel açıdan dengelemeye çalıştı.
Anahtar Kelimeler: Arap Dili ve Belagati, Abbasi Edebiyatı, Ahmaklık, Gaflet, Delilik, İbnü'l-Cevzî, İbn Habîb.

الحمق والغفلة والجنون في الأدب العباسي
دراسة مقارنة بين ابن الجوزي وابن حبيب النيسابوري

ملخص
يُعدُّ أدبُ الحمْق والغفلة والجنون أحدَ ألوان الأدب الشعبي الذي كان موجوداً منذ فترة مبكرة في الأدب العربي، إلا أنَّه بدأ يأخذ شكلاً أكثرَ نضجاً في العصر العباسي، وقد ساعد في ذلك النَّظرَةُ الإسلامية المتسامحة مع الأشخاص المتّصفين بهذه الأوصاف من جهة، وتوسُّعُ دائرة الحمق والغفلة في المجتمع لتشمل المتغافلين والمتحامقين ومدَّعي الجنون.

وقد اهتمَّ الأدباء العباسيون كالجاحظ (255هـ/869م) وأبي الفرج الأصفهاني (356هـ/967م) وغيرهما في موسوعاتهم الأدبية بأخبار هؤلاء الأشخاص، وأفرَد لهم بعضُ العلماءِ مؤلفاتٍ مستقلة كابن أبي الدنيا وابن الضرَّاب. وكان من بين الأئمة الذين تناولوا هذه الظاهرة بالدراسة والفحص، عالمان كبيران؛ هما: أبو الفرج ابن الجوزي الذي تناول أخبار الحمقى والمغفلين والمجانين على وجْهِ العموم في كتابِهِ "أخبار الحمقى والمغفلين"، وابنُ حبيب النيسابوري الذي تناولَ فئةً خاصَّةً منهم في كتابه "عقلاء المجانين".

وتحاول هذه المقالة أنْ تُسلِّطَ الضوء على ظاهرة الحمق والغفلة والجنون في الأدب العباسي، من حيث الحقيقةُ والادّعاءُ، وتتناولها بشيءٍ من التفصيل كما سطَّرها كتابا ابنِ الجوزي وابنِ حبيب، وذلك من خلال الوقوف على الملامح العامة للكتابين، وفصولهما، ومنهجَي المؤلِّفَين فيهما، ودوافعِهما للتأليف، ثُمَّ حاول الباحثُ أن ينظرَ إلى الكتابين نظرةً نقديةً، مع الموازنة بينهما من الناحية الأدبية والموضوعية.
الكلمات المفتاحية: اللغة العربية وبلاغتها، الأدب العباسي، الحمق، الغفلة، الجنون، ابن الجوزي، ابن حبيب.

الحمد لله رب العالمين

مقدمة

نظرتِ الحضارةُ الأوربيةُ في العصر الكلاسيكي إلى المرضى النفسيين على أنهم عناصرُ ضارةٌ غيْر قابلة للاندماج في المحيط الاجتماعي، وأنهم عبارةٌ عن حالاتٍ شيطانية تهدّدُ المجتمع، ولذلك كان لابدَّ من التخلص منهم عن طريق العزْلِ أو الحبْسِ أو النَّفْيِ، ويَسْرُدُ لنا التاريخُ الأوربيُّ فصولاً من مآسي التعامل الوحشي مع الحمقى والمجانين، وكيف كانت "سفن الحمقى" تُستخدَم لإرسال المرضى النفسيين إلى عالَمِ الرعب خارجَ حدودِ المدن، أو يُخصَّصُ لهم المستشفياتُ والسجون الخاصّة حيث يلاقون ألوانَ العذاب والشقاء.[1]

في ذلك الوقت نفسه كانت الحضارة الإسلاميةُ تتعامل مع هؤلاء المرضى بقدْرٍ كبيرٍ من التسامح والمرونة والرَّحَابة، بل كانوا في كثيرٍ من الأحيانِ مصدراً للطَّرَافةِ والسعادة في المجتمع، وربما كان الإحسان إليهم والرفق بهم وسيلةً لاستجلاب البركة والحصول على مرضاة الله تعالى. وتذكر دائرة المعارفِ البريطانية أنَّ أقدم مستشفيات

* Bu makale Sawsan Alafyoni'nin çalışması devam eden "Abbasi Edebiyatında İmta' Ve Müanese Sanatı" adlı Aksaray Üniversitesi doktora tezinden üretilmiştir.

1 ميشيل فوكو، *تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي*، ترجمة: سعيد بن كراد، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006م)، 23.

الأمراض العقلية في العالم تم إنشاؤها في بغداد والقاهرة ودمشق، وكان المرضى النفسيون والعقليون يتلقّونَ العلاجَ في البيمارستانات، وكان أوَّلَ بيمارستانٍ قام في العالم الإسلامي في مدينة دمشق، بأمرٍ من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك عام 88هـ/707م.[1]

ولم يتوقف اهتمام المسلمين بالمرضى النفسيين عند الرعاية الطبية والصحية فقط؛ بل تعدَّاه إلى دراسةِ أحوالهم، وتصنيفِ درجاتِهم، وجمْعِ أخبارهم، وتَتَبُّعِ آثارهم، وحفْظِ أشعارِهم ومقولاتِهم، وكتابةِ لطائفِ الحكمة التي جرتْ على ألسنتهم. وزخرَت كتب التراثُ العربيُّ بالكثير منَ النصوصِ التي تؤرِّخُ لحكاياتهم، وتصوِّرُ حياتهم الاجتماعيةَ في قالبٍ ساخرٍ وممتعٍ، خصوصاً أنهم في كثيرٍ من الأحيان كانوا بظرافتهم يتجاوزون حدود الكلام مع ذوي الشأن والسلطان، دون أنْ يخافوا عواقبَ المحاسبة.

ومما تميزتْ به الحضارةُ الإسلامية، انتشارُ الاهتمامِ بأدب الحمق والغفلة والجنون في الأدب العربي في وقتٍ مبكرٍ؛ فقد روى الإمامان المحدثان البيهقي(458هـ) في "مناقب الشافعي" والنووي(676هـ) في "تهذيب الأسماء واللغات" أن محمد بن عبد الحكم –وكان تلميذاً للشافعي– قال: "سمعت الشافعي يقول: أروي لثلاثمئة شاعرٍ مجنون".[2]

وفطنَ العربُ قديماً إلى النبوغ الأدبي والفني عند هؤلاء الناس حتى إنَّ عبارة "الفنونُ الجنون" المعروفة في عصرنا، قديمةٌ وجدناها عند الزمخشري المفسر المعتزلي(539هـ) الذي جعل أحد مقاماته المشهورة بعنوان: "الجنون فنون، والفنون جنون"، كما ينقل الجاحظ عن طائفة ممن يسميهم "المسجديين" أنهم كانوا يعدُّون مَن "لم يروِ أشعار المجانين أنه ليس من الرواة"!.[3]

وذكر ابنُ النديم(384هـ) في "الفهرست" أنَّ أبا الحسن المدائني(225هـ) ألّف كتاباً سمّاه "كتاب الحمقى"، وقال ابن حبيب النيسابوري(406هـ): كنت في حداثة سني سمعت كتباً في هذا الباب، مثل كتاب الجاحظ(255هـ) وكتاب ابن أبي الدنيا (281هـ) وغيرهم.[4] وهذا الكلام يدلُّ على أنَّ للجاحظ وابن أبي الدنيا كتباً خاصةً بالمجانين لم تصل إلينا.[5]

وخصَّصتْ كتبُ الأدبِ الجامعةِ فصولاً وأبواباً تناولت موضوعاتِ الحمْقِ والغفلة والجنون، كما نجد عند الجاحظ(255هـ) الذي عقَدَ في كتابه "البيان والتبيين" باباً تحت عنوان (كلام النَّوَكى[6] والموسوسين والجُفاة والأغبياء)، وابن عبد ربِّهِ(328هـ) في "العقد الفريد" في باب (أخبار المَمْرُورِينَ[7] والمجانين)، وأبي الفرج الأصفهاني(356هـ) في الأخبار المتفرقة التي ساقها في كتاب "الأغاني". ومن المصنّفاتِ المستقلّة التي كُتِبتْ في مرحلةٍ لاحقةٍ حول هذا الموضوع، كتابُ "عقلاء المجانين" لابن حبيب النيسابوري(406هـ)، والفائق في أسماء المائق[8] لابن الأنباري(577هـ)، وكتاب "أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزي(597هـ).[9]

ولعلَّ من أقدم ما وصل إلينا من التصانيف المستقلة في هذا البابِ كتابُ "عقلاء المجانين والموسوسين" لأبي محمد الحسن بن إسماعيل الضَّرَّاب(392هـ)، لكنه رسالةٌ صغيرة الحجم لا تتجاوز ثماني ورقات، والأخبار الواردة فيه مذكورةٌ في كتبٍ أدبيةٍ أخرى، ولذلك قلَّ الاهتمام به.[10]

ويكاد يتفق الباحثون على أنَّ من أهم ما كتب في العصر العباسي حول هذا الموضوع؛ كتابا "عقلاء المجانين" لابن حبيب النيسابوري، و"أخبار الحمقى والمغفلين" للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، ولذلك تتّخذُ هذه المقالةُ من دراسةِ هذين الكتابين موضوعاً لها، وتهدف إلى تسليطِ الضوء على ظاهرة الحمق والغفلة والجنون في العصر العباسي بشكلٍ عامٍّ، وأنْ تعكسَ كيفيةَ التعامل معها كما سطَّرها هذان الكتابان على وجه الخصوص، وتهدف أيضاً إلى الوقوف على الملامح العامة للكتابين، ومنهجَي المؤلِّفين، ودوافعِهما للتأليف، ومن ثَمَّ النظرُ إلى الكتابين نظرةً نقديةً، مع الموازنة بينهما من الناحية الأدبية والموضوعية.

وتنبع أهمية البحث من كونِه يبيِّنُ نظرةَ المجتمع العباسي إلى المصابين بهذه الآفات، ويحاولُ تقديمَ مقارنةٍ أدبيةٍ بين إمامين زاهدين فيما يتعلق بموقفهما من هذه الظاهرة الطريفة أدبياً واجتماعياً؛ فعلى الرغم من أنَّ كلاً منهما تناولها من زاويةٍ مختلفةٍ عن الآخر، إلا أنَّ كلّاً منهما ابتعد عن السخرية والتنقيص التي تشوبُ مناقشةَ أمثال هذه الموضوعات عادةً، وبهذا الشكل يحاول هذا البحث أن يقدِّمَ إضافةً جديدةً للدراسات الأدبية العربية عموماً، ولأدب العصر العباسي على وجه الخصوص.

ونشير هنا إلى وجود بعض الدراسات السابقة المتعلقة بالموضوع؛ ومنها:

- بحث بعنوان "الثنائية وخطاب الحمق والجنون في التراث العربي" لسمر الديوب، وهو بحث منشور على موقع Hexa Times https://hexatimess.com/articles-view.php?id=101 ، لكنه تناول الحمق والجنون في التراث العربي عموماً دون تخصيص بالعصر العباسي، كما أنه، لم يفصِّل القول فيما يتعلق بابن الجوزي وابن حبيب النيسابوري.
- بحث بعنوان "الحمق والجنون في مرايا الأدب العربي القديم" لفيصل أبو الطفيل، وهو بحث منشور في مجلة قضايا الأدب عام 2016، https://www.asjp.cerist.dz/en/article/80301 ، وهو كالبحث السابق في أنه يتحدث عن الحمق والجنون في التراث العربي عموماً، كما أنه يتناول الموضوع، من حيثُ أنَّه ظاهرةٌ اجتماعيةٌ أكثرَ منها أدبية.
- مقال بعنوان "نقد كتاب: مقالات في أدب الحمقى والمتحامقين لمؤلفه أحمد الحسين" لحسين حمدان العساف، منشور على موقع ديوان العرب، https://2u.pw/evjbmAFb ، وهو مقالٌ عامٌ أيضاً، وتناول الموضوع من حيث كونه ظاهرة اجتماعية لا أدبية، إلا أنَّه تميَّز بأنَّه عقدَ مقارنةً مختصرةً بين ابنِ الجوزي وابنِ حبيب، لكنَّها مقارنةٌ مختصرةٌ لا تَفِي بالمقصودِ من البحث هنا.

---

1 وليد بدران، *"اليوم العالمي للصحة النفسية: قصة أقدم مستشفى للأمراض النفسية في العالم"*، BBC NEWS، (الوصول 10-10-2021).

2 مراسلون، "الشافعي روى لـ300 شاعر مجنون والذهبي سمع نوادرهم.. مجانين العرب ثوار وأولياء وعاشقون"، (الوصول 10 أكتوبر 2019).

3 المرجع السابق.

4 الحسن بن محمد ابن حبيب النيسابوري، *عقلاء المجانين*، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ/1985م)، 15.

5 مراسلون، "الشافعي روى لـ300 شاعر مجنون والذهبي سمع نوادرهم.. مجانين العرب ثوار وأولياء وعاشقون".

6 الأَنْوَكُ الأَحمَقُ وجَمْعُهُ النَّوْكَى. محمد بن مكرم ابن منظور، *لسان العرب*، (بيروت: دار صادر، د. ت.)، "نوك"، 501/10.

7 المَمْرورُ من غُلِبَ على عقْلِه. ابن منظور، "مرر"، 165/5.

8 المائق الهالكُ حمقاً وغباوةً. ابن منظور، "موق"، 350/10.

9 فيصل أبو الطفيل، "الحمق والجنون في مرايا الأدب العربي القديم"، *قضايا الأدب*، 1/1 (كانون الأول 2016م)، 68.

10 الحسن بن إسماعيل الضَّرَّاب، *عقلاء المجانين والموسوسين*، تحقيق: إبراهيم صالح، (دمشق: دار البشائر، 1424هـ/2003م)، مقدمة التحقيق، 13-14.

- مقال بعنوان "كتاب عقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري دراسة في الأنساق الثقافية"، لعادل القباطي، وهو بحث منشور في مجلة فصل الخطاب عام 2022، https://bucket.theses-algerie.com/files/repositories-dz/2363775022781523.pdf ، تناول فيه صاحبه الأنساق الثقافية في كتاب النيسابوري، وصنَّفها ضمن ثلاثة أنساق؛ نسق المحبة، والأنساق الاجتماعية، والأنساق السياسية، ولم يتناول فيها الجانب الأدبي.
- كما نجد أيضاً بعض المقالات المتفرقة على المواقع الإلكترونية على الشابكة، تحدَّثت عن الكتابين بصورةٍ تعريفيةٍ، وتناولتْ هذه الظواهرَ بشكلٍ عامٍ، وقد تمت الاستعانة ببعضها عند الحاجة في أثناء هذا البحث مع العزو إليها.

واستخدمت المقالةُ المناهج الاستقرائيةِ والوصْفيةِ والتحليليةِ، لفَهْمِ ظاهرة الحمق والتحامق في الاستعمال اللغوي عموماً، وفي الأدب العباسي على وجه الخصوص، ولتحليلِ منهجَي ابن حبيب وابن الجوزي، ورصْدِ مواضع الاتفاق والاختلاف بينهما، وذلك من أجل تقديم إضافةٍ جديدةٍ للدراسات الأدبية في العصر العباسي حول هذا الموضوع.

1. الحمق والغفلة والجنون؛ مقاربةٌ لغوية

الحُمْقُ في لغة العرب ضدُّ العَقْلِ، وحَمِقَ فلانٌ قلَّ عقلُهُ.[1] وثَمَّةَ تعريفٌ آخر يردُّ أصلَ الحُمْقِ إلى إنْمحَاقِ السُّوقِ إذا كسَدتْ، فكأنَّه فسَدَ عقلُهُ حتى كسَدَ.[2]

والغَفْلَةُ هي غَيْبَةُ الشَّيءِ عن بالِ الإنسانِ، وعدمُ تَذَكُّرِهِ لَه. والتَّغافُلُ: تَعَمُّدُ الغفلة.[3]

أما الجنون فهو مصدر من (الجَنّ) وهو السَّتْر، وفي الحديث: "جنَّ عليه الليل" أي ستره، وسمي المجنون لاستتار عقله.[4] ويشمل الجنون أيضاً حالةَ مخالفةِ الناسِ في تقاليدهم وعاداتهم، والإتيانِ بما ينكرونه ويستهجنونه، ولذلك سَمَّت الأممُ أنبياءَها مجانينَ لأنهم خرجوا عليهم ونابذوهم وأتَوا بخلاف ما يعرفون.[5] ورمى مشركو مكة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون، ووردت لفظة مجنون في القرآن الكريم أحد عشر مرة.[6]

ويُلاحَظُ هنا الاتساع الكبير في الاستعمال اللغوي لمعاني الحمق والجنون والغفلة؛ فعلى سبيل المثال نجد غزارةً عجيبةً في كتب المعاجم للألفاظ الحاملة لهذه المعاني، ففي معجم "لسان العرب" وحده ثمَّةَ أكثر من 400 لفظة تدل على معاني الحمق، وحوالي 100 لفظة تدل على الجنون، وعقد ابن الجوزي في "أخبار الحمقى والمغفلين" باباً خاصاً في (ذِكْرِ أسماء الأحمق)، ذكرَ منها: الرَّقِيع، المائِق، الخَرِف، المأْفُون، المأفُوك، الأخْرق، وغيرها. حتى قيل: لو لم يكنْ من فضيلةِ الأحمقِ إلا كثرةُ أسمائِهِ لكَفى.[7]

وعلى الرغم من أنَّ المجنون عادةً يكون أشدُّ اضطراباً؛ إلا أننا من ناحية الاستعمالِ نجد أنَّ الحمقَ والغفلةَ والجنونَ تكاد تمثِّلُ حقلاً واحداً تزول فيه الحواجز المعرفية؛ فلا يكاد المرءُ يجدُ فرقاً واضحاً بين هذه الألفاظ في كتب الأدب، فالاسمُ الواحدُ يُنعَتُ به الأحمق والمغفل والمجنون في آنٍ واحدٍ على السواء دون تفريقٍ، ولا يجد الأدباء أدنى حرجٍ حين يضعون لفظةً من هذه الألفاظ مكان أخرى، فيتكلم الواحدُ منهم عن مجنونٍ من المجانين، ثم يصفه بالأحمق، ويتناول أحدَ الحمقى، ثم يقول عنه: "أجنُّ الناس".[8] وذكر ابن الجوزي الحمق والغفلة في سياقٍ واحدٍ فقال: معنى الحمق والتغفيل هو الغلطُ في الوسيلةِ والطريقِ إلى المطلوب مع صحةِ المقصود.[9]

والسبب في ذلك اشتراكُ المغفل والأحمق والمجنون في جملةٍ من الأوصافِ التي تخالف العُرْفَ الاجتماعي العام الذي يضبط تَصرُّفاتِ العقلاء، ولأنَّ المنطق الذي يستعمله هؤلاء الأشخاص هو منطقٌ واحدٌ مع اختلاف الدرجة، ولذلك فإنَّ الأدباء عندما لم يجدوا بين المغفل والأحمق والمجنون فَرْقاً يستحقُّ الذِّكْرَ من الناحية الأدبية؛ فإنهم أدرجوا أخبارَهم ضمن سياقٍ واحدٍ في كتبهمْ.[10]

ومما يتصل بالحمقِ والغفلة والجنونِ؛ ما يُطلَقُ عليه التحامقُ والتغافلُ، بمعنى ادّعاء الغفلة أو الجنون، أو أنْ يُظهر المرءُ نفسَه غبياً أو أحمقاً؛ وقد يكون الدافع لذلك الاستغراق في التصوف[11]، أو اليأس من إصلاح الواقع، فيقوم الشخص بادعاء الحمق هرباً من الواقع السيئ الذي يعيش فيه، وقد يتحامق الشاعر ليحصل على الجوائز الشعرية التي لا يمكنه الوصول إليه بأشعار الجِدِّ، خصوصاً إذا كان معاصراً لفحول الشعراء، أو يتحامق بقصد الإفلات من قبضة السلطة الظالمة.[12]

2. الإمامان ابن الجوزي وابن حبيب النيسابوري؛ نظرةٌ تعريفيةٌ

1.2. الإمام ابن الجوزي

1 ابن منظور، "حمق"، 67/10.

2 المرجع السابق.

3 ابن منظور، "غفل" 497/11.

4 ابن منظور، "جنن" 92/13.

5 النيسابوري، *عقلاء المجانين*، 8.

6 مراسلون، "الشافعي روى لـ300 شاعر مجنون والذهبي سمع نوادرهم.. مجانين العرب ثوار وأولياء وعاشقون".

7 أحمد خصخوصي، *الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع*، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1413هـ/1993م)، 14، 42؛ عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، *أخبار الحمقى والمغفلين*، تحقيق: عبد الأمير مهنا، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1410هـ/1990م)، 28.

8 أحمد خصخوصي، *الحمق والجنون*، 25.

9 ابن الجوزي، *أخبار الحمقى والمغفلين*، 23.

10 سمر الديوب، "الثنائية وخطاب الحمق والجنون في التراث العربي"، Hexa Times (الوصول 06-05-2023)؛ فيصل أبو الطفيل، "الحمق والجنون في مرايا الأدب العربي القديم"، 68.

11 لا تقصدُ الباحثة هنا أنَّ التصوف هو حالةٌ من حالات الجنون؛ بل المقصودُ الإشارةُ إلى حالاتٍ خاصة استغرق فيها بعضُ المتصوفة بمحبة الله تعالى فدخلوا في حالةٍ من الغياب عن الواقع، وقد ذكر ابنُ حبيب النيسابوري طرفاً من أخبار هؤلاء كما سيأتي.

12 مراسلون، "الشافعي روى لـ300 شاعر مجنون والذهبي سمع نوادرهم.. مجانين العرب ثوار وأولياء وعاشقون"؛ رياض قزيحة، *الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي*، (بيروت: المكتبة العصرية، 1998م)، 260.

يعود نسَبُ الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي الحنبلي إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولد في العراق واشتهر بابن الجوزيّ، لوجود شجرة جوزٍ في بيته، وكانت الشجرةَ الوحيدةَ في البلدة.[1]

نشأ يتيماً في عائلةِ فضْلٍ وعلمٍ، وتفرَّغ منذ طفولته لطلب العلم، وتتلمذ على يد عددٍ من كبار علماء عصره، وعُرِفَ عنه الزهد والورع، والابتعاد عن أماكن الاختلاط بالناس، وأسس مدرسةً في بغداد، وأوقَفَ فيها مكتبةً كبيرةً، كان علّامة عصرِه في التاريخ والحديثِ وتميّز بغزارة إنتاجه العلمي، وكثرةِ مصنفاته التي جاوزت أربعمائة مصنف ما بين كتابٍ ضخم ورسالة صغيرة في التفسير والفقه والتاريخ والسيرة والأدب.[2]

وكان أوحدَ زمانه في الوعظ، وقيل إنَّه حضر مجلسَه في بعض الأوقات مائة ألف، وقال في آخر عمره: كتبتُ بإصبعيَّ هاتين ألفَي مجلَّدة، وتاب على يديَّ مائة ألفٍ، وأسلم على يديَّ عشرة آلفِ يهوديٍّ ونصرانيٍّ، وتوفي في مدينة بغداد عام 597هـ بعد أن قارب التسعين رحمه الله تعالى.[3]

2. 2. الإمام ابن حبيب النيسابوري

لم يبلغ الحسنُ بن محمد ابنُ حبيب النيسابوري الرتبةَ التي بلغها الإمام ابن الجوزي، وعلى الرغم من ذلك كان إماماً في القراءات والتفسير، عارفاً بالمغازي والسير، أديباً نحوياً زاهداً واعظاً، وله التصانيف في ذلك، وروى عنه الإمام الحاكم صاحب المستدرك، والإمام البيهقي، وتعدَّدتْ مواهبه حتى إنه تقدَّم في الطبّ، وكان كرَّاميَّ المذهب ثم تحوَّلَ شافعياً.[4]

ومن لطيف شعره:

بمن يستغيثُ العبدُ إلا بربِّهِ ومَن لِلفتَى عندَ الشَّدَائدِ والكرْبِ

ومَن مالكُ الدُّنيا ومالكُ أهلِهَا ومَن كاشفُ البلوى على البُعدِ والقُربِ

ومَن يدفعُ الغمَّاءَ وقتَ نزولِها وهل ذاكَ إلا مِن فِعَالكَ يا ربِّي[5]

انتشر عنه العلم الكثير بنيسابور وسارت تصانيفه الحِسَان في الآفاق، وأشهر كتبِه "عقلاء المجانين" الذي نتناوله في هذا البحث، وتوفي سنة (406هـ) رحمه الله تعالى.[6]

3. "أخبار الحمقى والمغفلين" و"عقلاء المجانين"؛ قراءةٌ وصْفيةٌ

1.3. "أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزي

يؤكّد ابن الجوزي في "أخبار الحمقى والمغفلين" على فكرة التوازي بين حركة العقل والجنون، فبيَّنَ في مقدمة كتابه أنه بعد أنْ شرَعَ في كتابه الآخر "أخبار الأذكياء" آثرَ أنْ يجمع أخبار الحمقى والمغفلين لثلاثة أسباب:

الأول: أنَّ العاقل إذا سمع أخبارهم؛ عرفَ قدْرَ نعمة الله عليه، فحثه ذلك على شكر المنعم.

الثاني: أنَّ ذِكْرَ المغفلين يحثُّ المتيقِّظَ على اتقاء أسباب الغفلة إذا كان ذلك داخلاً تحت كسبه، وأما إذا كانت الغفلة مجبولةً في الطباع، فإنَّها لا تكاد تقبلُ التغيير.

والثالث: ترويح النفس بحكاية أحوال هؤلاء الناس، فإن النفس قد تَمَلُّ مِنَ المداومة على الجِدِّ، وترتاح إلى بعض اللهو المباح.[7]

وهكذا جمَعَ ابن الجوزي طائفةً من الطرائفِ والنوادرِ التي تناقلها الناس عن الحمقى والمغفلين؛ لأنه رأى أنَّ الشيءَ يُعرَفُ بضدِّه. وهذهِ المعرفةُ مِن أبلغِ وسائل التعليم، والترغيبِ في حُسْنِ السُّلوكِ، فضلًا عن دَورها في إدخال البشاشة والفرح على النفْسِ.

قسَّم ابن الجوزيّ كتابَه إلى أربعة وعشرين بابًا، بدَأَها بمقدمةٍ عن الضحك، وأنَّه مقبولٌ بل ومطلوبٌ ما دام في حدود الاعتدال، واستدلَّ على ذلك من السنة النبوية الشريفة، ثمَّ بيَّنَ معنى الحَماقة، وأسماء الأحمق، ومرادفاته المختلفة، ثم شرح صِفات الأَحْمق وأحوالَه، واختلافَ درجات الحُمْقِ والغفلةِ بين الموصوفين بهذه الصفات، وفرَّق بين الحمق الذي هو "الغلط في الوسيلة مع صحة المقصود"، والجنون الذي هو "عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعا"، وميَّزَ بين الحماقة الغريزية التي لا أملَ في الخلاص منها، والحماقة "المكتسبة".[8]

ولم يُفَوِّتِ ابن الجوزيّ فرصةَ التحذيرُ من صحبة الحمقى، ومن ذلك ما نقله عن ابن أبي زياد أنه قال: قال لي أبي: يا بني الْزم أهلَ العقل وجالسهم، واجتنب الحمقى، فإنّي ما جالستُ أحمقَ فقمتُ إلا وجدتُ النَّقصَ في عقلي.[9]

وأرشدَ إلى الحكمة في التعامل مع الحمقى، إذ لا ينبغي الغضبُ منهم؛ فمن غضب من الحمقى كَثُرَ غمُّه،[10] ونقلَ عن حكيمٍ قولَه: ليس كلُّ أحدٍ يحسن يعاملُ الأحمق، وأنا أُحسِنُ أعاملُه، قيل له كيف؟ قال: أبْخَسُهُ حتى يطلبَ الحقَّ بعينِهِ، إذ متى أعطيتَه حقَّه طلبَ ما هو أكثرُ منه.[11]

---

1 محمد بن عثمان الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405هـ/1985م)، 352/22.

2 المرجع السابق؛ خير الدين الزركلي، *الأعلام*، (بيروت: دار العلم للملايين، 2002م)، 316/3.

3 محمد بن عثمان الذهبي، *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ/1987م)، 291/42.

4 خليل بن أيبك الصفدي، *الوافي بالوفيات*، تحقيق: أحمد الأرناؤوط ـ تركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث، 1420هـ/2000م)، 150/12؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، 237/17.

5 الصفدي، *الوافي بالوفيات*، 150/12.

6 الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، 237/17.

7 ابن الجوزي، *أخبار الحمقى*، 14.

8 المرجع السابق، 23.

9 المرجع السابق، 38.

10 المرجع السابق.

11 المرجع السابق، 40.

ثمَّ انطلق بعد ذلك في رحلةٍ ممتعةٍ مع قُرَّائِه يحكي لهم حكاياتٍ متنوعةً عن عن طوائفَ من الحمقى والمغفلين رِجالًا ونساءً؛ فكانَ مِنْهم المعلّمون والرُّواةُ والقُرَّاء والزُّهاد، بل كان منهم أيضاً الوُلاةُ والأُمَراءُ والقُضاةُ.

وأوَّلُ الحمقى عند ابن الجوزي هو إبليس، لأنه ليس بعد غفلتِه غفلةٌ، ولا بعد حماقتِه حماقةٌ؛ لأنه اغتر بنفسه وتكبَّرَ على ربه، بعد أن كان متعبِّدَاً مؤذّناً للملائكة، ولم يتوقَّفْ عندَ حسدِ آدم عليه السلام، ولكنه خرج إلى الإعتراض على المالكِ بالتخطئة للحكمة!.[1]

وبالوقوف على كتاب ابن الجوزي نجده يقسّمُ حمقَاه حسَب خطورةِ الحمق الذي وقعوا فيه، وكأنَّه جعلهم على قسمين رئيسيين: أوَّلُهما قسمُ حمقَى الخاصّة، وهم الأخطر على المجتمع، وذلك بسبب خطورةِ الخطأ الذي وقعوا فيه، فخطورتهم تكْمُنُ بتأثيرِهم في المجتمع والعامة، ولذلك نجد ابنَ الجوزي يبدأ بسرْدِ المغفلين من القرّاء والمُصَحِّفين، فخطأُهم وقعَ في المصدر التشريعي الأول وهو القرآن الكريم، فأيُّ خطأٍ أعظمُ من الجهل بكلام الله تعالى والخطأ فيه؟!.

ومن ذلك ما ذكره عن بعض القراء أنه كان يقرأ: من مصحف في حجره: ولله ميزاب السموات والأرض، فقال له أحدهم: يا شيخ ما معنى ولله ميزاب السموات والأرض؟ قال: هذا المطر الذي نراه، فقال: ما يكون التصحيف إلا إذا كان بتفسير! يا هذا إنما هو: "ميراث السموات والأرض" فقال: اللهم اغفر لي، أنا أقرؤها هكذا منذ أربعين سنة، وهي في مصحفي هكذا.[2]

ثم ذكَر المغفلين الذين أخطؤوا في المصدر التشريعي الثاني بعد كتاب الله وهو السنة النبوية، فذكر المغفلين مِن رواة الحديث ومصحفيه، ومن ذلك ما رواه الشافعي أنه قيل لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: حدَّثكَ أبوك عن جدك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً وصلت خلف المقام ركعتين؟ قال: نعم.[3]

واذا تذكَّرْنا أنَّ المصدر الثالث للتشريع هو الاجتهاد، فإنَّ هذا يفسر إتيانه بعد ذلك على ذِكْرِ طوائفَ من المغفلين من القضاة والأمراء والولاة ثم الكُتّاب وغيرهم، ومن ذلك ما رواه عن بعض الرواة: تقدَّم رجلان إلى أبي العطوف قاضي حرّان فقال أحدهما: أصلحَ الله القاضي، هذا ذبحَ ديكاً لي فخذْ لي بحقِّه، فقال لهما القاضي: عليكما بصاحب الشرطة فإنه ينظر في الدماء!.[4]

ويقف الباحث في كتاب ابن الجوزي على طوائف أخرى من الحمقى والمغفلين، من المعلمين والقصاص والمتزهدين والأعراب وغيرهم، ولعل الجامع بينهم أنهم فئةٌ مؤثِّرةٌ في المجتمع، يجتمع العوامُّ حولَهم، يستأنسون بفكرهم، ويأخذون مِن علمهم، ويتفكَّهون بحديثهم.

ولعل دافع ابن الجوزي لاسقاطه الضوء على حمقى القراء والمحدثين والقضاة وغيرهم شيوع هذا النوع من الجهل في زمانه وغيرة ابن الجوزي على دينه وهو الامام المحدث الفقيه، فكأنه رأى من هؤلاء جرأة على مقام الله وكتابه وجرأة على مقام النبوة، واجتهاد وقضاء بجهالة، فمارس سلطته العلمية والوعظية للتنبيه على أخطاء هؤلاء وتنفير الناس منهم ومن سلوكياتهم.

أما القسم الثاني من الحمقى عند ابن الجوزي فهم حمقى العامّة، فهم وإن كانوا حمقَى فحُمْقُهم عائدٌ عليهم، ولايؤثّر على غيرهم، وأدْخَلَ في زمرة هؤلاء الحمقى الجهلةَ بقواعد اللغة العربية، والبنى الإعرابية، والنظام الشعري، ومناسبة الخطاب للمخاطب، وربما كان دافعَه لذلك المكانةُ السامية للغة العربية عند العرب خاصَّةً والمسلمين عامة، فهي لغةُ القرآن الكريم، ولغة السنة النبوية، ومما ذُكِرَ عن هؤلاء ما رواه أبو زيد النحوي قال: قال رجلٌ للحسن: ما تقول في رجلٍ تركَ أبيه وأخيه؟ فقال الحسن: ترك أباه وأخاه!. فقال الرجل: فما لأباه وأخاه؟ فقال الحسن: فما لأبيه وأخيه! فقال الرجل للحسن: أراني كلما كلمتك خالفتني؟!.[5]

ومما يُلاحَظ هنا أنَّ ابنَ الجوزيّ تأثَّر بالفكرة القديمة التي تربط بين شكل الجسم والعقل، فذكرَ جملةً من الصفات الخَلْقية التي تدل على الحمق، ومن ذلك ما نقله عن بعض الحكماء أنَّ الرأس إذا كان صغيراً رديءَ الشَّكْلِ دلَّ على رداءةٍ في هيئة الدماغ،[6] وإذا كانت العينُ عظيمةً مرتعدةً فصاحبُها كسلانٌ بطَّالٌ أحمق، ومَن طالتْ عنُقُه ورَقَّتْ، فهو أحمقُ جبان، ومَن كان أنفُه غليظاً ممتلئاً فهو قليلُ الفهم، وإذا كان الرجلُ عظيمَ الهامةِ طويلَ اللحية فاحكم عليه بالرقاعة.[7]

وترى الباحثةُ أن الصفات الجسدية لا علاقة لها بالصفات العقلية، وهذا يخالف الواقع فبعضُ الناس يتصف بمثل هذه الصفات لكنه معدودٌ في جملة العقلاء والأذكياء، كما أنَّ هذا القول لا يستندُ إلى دليلٍ شرعيٍّ صحيحٍ، إلا ما وردَ في بعضِ الآثار الضعيفة والموضوعة التي نرى أنَّ مناقشتَها هنا يمكن أنْ تخرج بالبحث عن سياقه وأهدافه.

وعلى الرغم من ذلك فلا يُنكَر أنَّ الأحمقَ والمجنونَ قد تعرِضُ له بعضُ الصفات التي تنتجُ عن قلّة اهتمامِه بحواسِّه وجوارحه كسيلان لُعابِه، وارتخاء شفتيه، وتدلّي لسانِه، واضطراب حركاتِه، وهذا أمرٌ لاحَظَه بعضُ المفكرين[8] إلا أنَّه لا يعني أنَّ الصفاتِ الوراثية في الجسم كحجمِ الرأس، ولونِ العينين، وطولِ القامةِ وقِصَرها ونحو ذلك؛ لها تأثيرٌ في عقل الإنسان.

2.3. "عقلاء المجانين" لابن حبيب النيسابوري

يدلُّ عنوان كتابُ النيسابوريّ "عقلاء المجانين" على التناقض الظاهري؛ فهم عقلاء ومجانين في الوقت نفسه، والعقل يتداخل مع الجنون بشكلٍ يصعب معه الفصل بينهما؛ يقول النيسابوري في مقدمة الكتاب: وكما شاب صفات أهل الدنيا بأضدادها، كذلك شابَ عقولَهم بالجنون، فلا يخلو العاقل فيها من ضرْبٍ من الجنون.[9]

1 المرجع السابق، 63.
2 المرجع السابق، 77.
3 المرجع السابق، 89.
4 المرجع السابق، 110.
5 المرجع السابق، 128.
6 المرجع السابق، 30.
7 المرجع السابق، 31.
8 أحمد خصخوصي، *الحمق والجنون*، 20.
9 النيسابوري، *عقلاء المجانين*، 8.

ولذلك نجد عقلاءَ النيسابوريّ يتظاهرون بالجنون، وينعزلون عن المجتمع، ويلجؤون للخرابات والمقابر، لكنهم مع ذلك قاموا بالكشف عن زيف المجتمع وما فيه من مظاهر سلبية، فتراهم مثلاً بطريقتهم الفكاهية يفضحون ممارسات الحكَّامِ الظَّلَمة، ويُغلِظونَ لهم القول دون أنْ يخافوا من بطشهم.

وذلك لأن المجنون الحقيقي عنده هو مَن ركن إلى الدنيا، وعمل بها وطاب بها عيشاً، وبذلك نطقت الأخبار.[1]

ومِن منهجِ ابنِ حبيب أنْ يبيّن بلدان مجانينه، فيستهل الكلام على كلّ واحدٍ منهم بذكر اسمِ بلده؛ فيقول: بصري، كوفي، واسطي، مكي، مصري. كما ذكر طبقاتهم وأنواعهم، كما بيَّن ذلك في مقدمات كتابه حيث قال: ونحن نذكر عقلاء المجانين، وطبقاتهم، ونعزوهم إلى بلادهم، ثم نذكر مجانين الأعراب، ثم المجانين من النساء، ثم نذكر أخبار من لا تثبتُ أسماؤهم من المجانين.[2]

وبدأ كتابَه بالحديث عن أصل الجنون في اللغة، ثم انتقل إلى الكلام عن أسماء المجنون في اللغة، فذكر له ثلاثة وعشرين اسماً، وبعد ذلك تناولَ الأمثالَ المضروبة في الحمق والحمقى، بل إنه تحدث عن بعض الحيوانات التي وصفت بالحمق أيضاً.

ثمَّ فصَّل القولَ في ضروب المجانين وذكر أنَّ منهم المعتوه، والممرور، والممسوس، والعاشق، ومنهم مَن اعتقد بدعةً أو ارتكبَ كبيرةً فأدرَكَهُ شؤمُهَا فَجُنَّ، ومنهم مَن جُنَّ خوفاً من الله تعالى، كما أن هنالك صنفاً منهم ادعى الجنون وهو صحيح العقل لِيُخفِيَ شأنَه، ويستتِرَه عن الناس، ومنهم مَن تحامق ليطيبَ عيشُه.

ثم شرع في ذكر نماذج من عقلاء المجانين، واستفتح كلامه بالمحبين من المجانين العقلاء، ومن ذلك ما نقله عن أبي العباس الرازي أنه قال ذات يوم لأصحابه: ألستُ عندكم مجنوناً وأنتم أصحّاء؟ زاد الله في جنوني وزاد صحتكم! ثم أنشد:

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ما لَذَّةُ العيشِ إلا للمجانينِ[3]

وفي مقدمة هؤلاء المجانين أصحابُ العشق الإلهي، الذين أثَّرتْ أحوالهم على عقولهم، فاضطربت أقوالهم وأفعالهم، وسبب اختلالهم أنه بسببِ واردٍ وردَ عليهم من المحبة أو المخافةِ أو الحزن أو الفرح، فأثَّرَ عليهم، حتى انحرف مزاجُهم، وهؤلاء نعذُرُهم، لكنْ لا يجوز الاقتداء بهم إلا فيما يوافق الشريعة.[4]

وأوَّلُ من ذكرَهم أويسٌ القرني فيقول: وهو من عقلاء المجانين قدس الله سره، وهو أوَّلُ مَن نُسِبَ إلى الجنون في الإسلام.[5]

ثم انتقل للحديث عن أهل العشق الدنيوي، ومنهم الشاعرُ قيس بن عامرٍ ــ الذي كان يُعرف بمجنون ليلى ــ فأفردَ له باباً، ذكَرَ فيه شيئاً من شعرِه الذي يصف حبَّه الميؤوسَ منه.[6]

يتناولُ النيسابوري وجهةَ نظَرِ بعضِ الناس في كونِ الجِدِّ والعقل لا يجلب المنفعة والغنى، بل ما يجلبهما هو الحمق والجهل!، ويدلّلُ على ذلك بعرْضِ نماذج لهؤلاء الذين تحامَقُوا لنيلِ المكاسب الدنيوية، ومنهم أبو نصر التميمي الذي كان يقول:

إنْ كنتَ تهوى أنْ تنالَ المالَا فالْبَسْ مِن الحمْقِ غداً سِرْبَالاً[7]

ويذكر أيضاً من تحامق طلباً للنجاة، كما حصل مع أبي الصلت عبد السلام بن صالح الفهندري حينما استدعاه الخليفة أيام محنة خلق القرآن، وسأله عن قوله في المسألة، فقال: ما تقول في القرآن؟، فقال أبو الصلت: تعَزَّ يا أمير المؤمنين! قال: عمَّن ويلك؟! قال: عن " قل هو الله أحد " فإنَّه مات!. قال: فكيف؟! قال: إنْ كان مخلوقاً فإنَّه يموت!، فقال: مجنونٌ أخرجوه، فأُخرِجَ فنجَا.[8]

وهو ــ كابن الجوزي ــ يؤكد على ضرورة الابتعاد عن صحبة الأحمق، كما نقل عن الأحنف بن قيس قولَه: اجتنب صحبة النَّوَكي ــ يعني الحمقى ــ فإنهم لا يستقرّون على حال. وقال بشر بن عمرو اتق الأحمق فليسَ للأحمق خيرٌ مِن هجرانه.[9]

ثم ينتقل إلى الحديث عن عقلاء المجانين، وتميَّزَ الكتابُ بإيراده قصصاً تحكي لقاءَ هؤلاء المجانين بشعراء، وفقهاء، وعلماء، وأصحاب سُلطة ونفوذ كالقضاة، والولاة، والأمراء، وكانت هذه القصص تنتهي دوماً بتفوق المجانين وغلبتهم.

ويؤكد النيسابوري على فكرةِ أنَّ تعلُّقَ العقلاء بالدنيا، وزهدَ المجانين فيها؛ هو ما يعطي خطاب هؤلاء (المجانين العقلاء) القوةَ والمصداقية، فهم مِن وجهة نظر المجتمع مجانين في الدنيا، لكنهم في المنطق الديني عقلاء في الآخرة.

واعتنى النيسابوري بعقلاء المجانين من النساء عنايةً خاصّة؛ ومن هؤلاء ريحانة التي كانت تنشد:

صبرتُ عن اللَّذاتِ حتى تَوَلَّتِ وألْزمتُ نفسِي صبرَها فاستمرَّتِ

وما النّفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتَى فإنْ أُطعِمَتْ تاقَتْ وإلا تَسَلَّتِ[10]

ومنهم مَن استخدمَ الجنونَ قناعاً يمكِّنُه مِن النَّقدِ السياسي والاجتماعي بعيداً عن محاسبة السلطة وعصاها، كما حصل مع الرشيد عندما خرج إلى الحج فلما كان بظاهر الكوفة إذ بصر بهلولاً المجنون على قصبةٍ وخلفَه الصبيانُ وهو يركض، فقال: من هذا، قالوا بهلول المجنون، قال: أدعُوه لي من غير ترويع، فقالوا له: أجب أميرَ المؤمنين؛ فعدا على قصبتِه، فقال الرشيد: السلام عليك يا بهلول، فقال: وعليك السلام يا أمير المؤمنين، قال: كنتُ إليك بالأشواق، قال: لكني لم أشتق إليك! قال: عظني يا بهلول، قال: وبم أعظك؛ هذه قصورهم وهذه قبورهم، قال: زدني فقد أحسنت، قال: يا أمير المؤمنين؛ مَن رزقه الله مالاً وجمالاً فعفَّ في جماله، وواسَى في ماله

---

1 الحسن بن محمد ابن حبيب النيسابوري، *عقلاء المجانين*، تحقيق: عمر الأسعد، (بيروت: دار النفائس، 1407هـ/1987م)، 35.

2 المرجع السابق، 93.

3 المرجع السابق، 28.

4 مراسلون، "الشافعي روى لـ300 شاعر مجنون والذهبي سمع نوادرهم.. مجانين العرب ثوار وأولياء وعاشقون".

5 النيسابوري، *عقلاء المجانين*، 44.

6 المرجع السابق، 47.

7 المرجع السابق، 35.

8 المرجع السابق، 39.

9 المرجع السابق، 43.

10 المرجع السابق، 122.

كُتب في ديوان الأبرار، فظن الرشيد أنَّه يريد شيئاً، فقال: قد أمرنا لك أن تقضي دينك، فقال: لا يا أمير المؤمنين، لا يُقضَى الدَّينُ بدينٍ، أُردُد الحقَّ على أهله، واقْضِ دَين نفسك من نفسك، قال: فإنَّا قد أمرنا أن يُجرَى عليك، فقال: يا أمير المؤمنين أترى الله يعطيك وينساني؟! ثم ولَّى هارباً.[1]

ويظهر الصبيان في كتاب النيسابوري دائماً على أنهم أعداءُ المجانين، تجري بينهم مطارداتٌ تنتهي غالباً بتدخُّلِ أحدِ الراشدين، أو بقصةٍ طريفةٍ؛ ومنها ما رواه أنَّ بهلولاً (وهو أحد المجانين) حملَ عليه الصبيان يوماً، فانهزم منهم فدخل دار بعض القرشيين وردَّ البابَ، فخرج صاحبُ الدار فأحضرَ له طبقاً فيه طعامٌ، فجعل يأكلُ ويقول: فضُرِبَ لهم بسورٍ له بابٌ باطنُه فيه الرَّحمة، وظاهرُه مِن قِبَلِه العذاب.[2]

بهذا الشكلِ يرسم لنا النيسابوري بطريقةٍ منهجيةٍ، صورةً كاريكاتوريةً يختلط فيها الجِدُّ بالهزل، والعقلُ باللاعقل، فنجد أنفسنَا مراراً على حافة التناقض أمام سؤالِ: مَن المجنون ومَن العاقل؟ هذا هو السؤال الذي يمكننا أن نعدَّه حجرَ الزاوية في الكتاب، والدَّفَّةَ الموجِّهةَ لحركة الأفكار فيه، التي تتضمن ثنائياتِ: عاقل/مجنون، دنيا/آخرة، حياة/موت، تفريط/افراط، اسراف/زهد، ضحك/بكاء. هذه هي التقابلات التي يلعب على حبلها صاحب كتاب عقلاء المجانين من أوَّلِ كتابه إلى آخره.[3]

4. الموازنة بين كتابي ابن الجوزي وابن حبيب

كلٌّ من ابنِ الجوزي وابنِ حبيبٍ كان مفسِّراً زاهداً، ويقوم بدورٍ اجتماعيٍّ إصلاحيٍّ لكونهما إمامَين واعظين إضافة لكونهما عالمين بعلومِ الشريعة، وكان لهما غاياتٌ وأهدافٌ مشتركةٌ من كتابيهما، ولعلَّ أهمَّها الترفيهُ وملاطفةُ السامع، ورغبتهما بترويحِ نفوسِ السامعين بشيءٍ من اللهو المباح، فكان أدبُ النادرة والإمتاع خيرَ وسيلةٍ لذلك، فالشيءُ يُعرَفُ بضدِّه، فإذا أدْرَكنَا حقيقةَ الحمقِ والغفلةِ، أدْرَكنَا أهميةَ الذكاءَ والفطنة، كما أنَّ هذه الأخبار تُدخِلُ السرورَ على النَّفس، وتُزيل الهمَّ والغمَّ.

ونجد كذلك أنَّ كلا الإمامين كانا يهدفان الى النقد الاجتماعي والسياسي والديني بأسلوبٍ غير مباشرٍ، مستخدمَين قناعَ الحمق والجنون لذلك، فالمجتمع والسلطة يجوّزان ويتقبَّلان من هذه الفئة مالا يتقبَّلان من غيرها، وبذلك يكون النقدُ أخفَّ وقْعاً على السامع وأدْعى لقبولِه.

وفي طريقة العرض استخدم المؤلّفان أسلوبَ روايةِ الأخبار بالأسانيد، وهي الطريقة العلمية الشائعة في ذلك العصر عصر المحدثين أمثال الحاكم والبيهقي وغيرهم.

لكن ثَمَّةَ فروقاً مهمةً بين الكتابين يمكن أن نلخصَّها بالآتي:

1.4. سبب تأليف الكتابين

إنَّ القارئ لكتاب النيسابوريّ يجدُه يُسقِطُ الضوءَ على مجانينَ تجسَّدَ في أقوالِهم الحكمةُ، فدلَّلَ عليهم بتسميةِ كتابه: "عقلاء المجانين"، بينما يعمَدُ الإمام ابنُ الجوزي إلى التنبيه على الجنون والحمق، حتى إنَّه يجعلُ العقلاءَ الذين يصرُّونَ على الخطأ في زمرةِ الحمقى والمغفلين.

وسبقَ القولُ في الأسباب الدافعة لابن الجوزي لتصنيف كتابه؛ في الحثِّ على معرفَةِ قدْرَ نعمةِ الله تعالى وضرورة شكر المنعم، والتنبيه على اتّقاء أسباب الغفلة إذا كانت داخلةً تحت الكسب، وترويح النفس بحكاية أحوال هؤلاء الناس.

فقد ذكرَ أخبار الحمقى والمغفلين ليعمل الناسُ على اتّقاء تلك الصفة ومحاولة الابتعاد عنها وتجنبها، خاصة لو كانت مكتسبةً، وقد ينفع مع المحاولة والمران البعدُ عن التغافل، لكنَّه أخبرنا أيضاً أن التغافل إذا كان في طبع الشخص وليس مكتسبا فلن يستطيع الإفلات منه أبدا للأسف.

أما كتاب النيسابوري فهو كتابٌ طريف في موضوعه، وضعَه صاحبه نزولاً عند رغبةِ نفرٍ من أصحابه، فقد أشار إلى ذلك في كتابه حيث قال: "ولقد سألني بعض أصحابي عوداً على بدء أن أصنف كتاباً في ذكر عقلاء المجانين وأوصافهم وأخبارهم، وكنت أتجنبه إلى أنْ تمادَى به السؤال، فلم أجدْ بداً مِن إسعافِهِ بطلبته، وإجابته إلى بغيته، تحرياً لرضاه وتوخياً لهواه".[4]

2.4. موضوع الكتابين

لا يتحدَّثُ النيسابوريُّ في كتابه عن أيّ مجانين، بل يتناولُ طائفةً خاصَّةً منهم، وهم المجانين الذين نطقوا بلطائف الحكمة، ونوادر القول، وفيهم مَن ادّعى الجنون وهو ليس كذلك بغية الوصول لمكسبٍ دنيويّ، أو طلباً للنجاةِ من مأزقٍ صعبٍ، وفيهم أيضاً من هو مجنونٌ في عُرْفِ الناس، لكنه في الواقع من المُتَأَلِّهين الذين استغرقوا في المحبة الإلهية، وآثروا الابتعاد عن الخلْقِ، ولذلك سمَّاهم "عقلاء المجانين".

وقد سبق القول أنَّ ابن حبيب اهتم ببيان بلدان مجانينه وطبقاتهم وأصنافهم، فذكرَ ضروب المجانين، ومن تحامَقَ لينالَ الغنى، أو لينعمَ بطيبِ المعيشة ويتكسب ويسترزق، أو لينجوَ من البلاء والآفات، ثم سرد أقواماً من عقلاء المجانين، وختم بمجانين الأعراب ثمَّ مجانين النساء، ثمَّ مَن لاتثبت أسماؤهم مِن المجانين.

أمَّا ابنُ الجوزي فيتناول الحمقى والمغفلين على وجه العموم، ويقسّمهم حسبَ خطورةِ الحمقِ الذي وقعوا فيه، إلى قسمين رئيسيين: حمقى الخاصة وهم الأخطر على المجتمع، من القراء والمصحفين والمحدثين، وأتْبعَهم بالقضاة والأمراء والولاة والكُتَّاب، ثمَّ أتى على ذكْرِ طوائفَ أخرى من حمقى المعلمين والقصاص والمتزهدين والأعراب وغيرهم.

أما القسم الثاني فهم حمقى العامّة، وخُمْقُ هؤلاء عائدٌ عليهم، ولذلك فإن تأثيرهم أخفُّ من غيرهم.

ونلاحظ أيضاً أنَّ ابنَ حبيبٍ لم يتطرّق إلى مسألةِ الصفات الخَلْقية التي تدلُّ على الحماقةِ بخلافِ ابنِ الجوزي، وكأنَّه لم يرَ لهذه الأوصاف تأثيراً في العقل زيادةً أو نقصاناً، وهذا ما رجَّحه الباحث فيما سبق.

3.4. النظرة لشخصيات الكتابين

يختلف المؤلِّفان بالنظر إلى الشخصيات التي أسقطا الضوء عليها؛ فابن الجوزي يذكر حمقَاه ليحملَ الناسَ على النفور من صفاتهم وأفعالهم، وبالنتيجةِ يدفعهم إلى اتقاء الأسباب التي تجعلهم يدخلون في عداد هؤلاء الحمقى.

---

1 المرجع السابق، 68.

2 المرجع السابق، 72.

3 مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة، "عقلاء المجانين"، (الوصول يناير 1987).

4 النيسابوري، *عقلاء المجانين*، 14.

بينما نظرة النيسابوري لمجانينه نظرة مختلفة، فالمجنون عنده واعٍ لجنونه، مختارٌ له، لاتعنيه نظرةُ المجتمع إليه، همُّهُ همُّ الجماعة، يشغله حب الله ومراقبته في جميع الأحوال، ويُحزِنُهُ فسادُ ولاة الأمر، وفسادُ الدين، تركُ الدنيا لأهلها، وانشغلَ بإعمار آخرته حرّاً مختاراً.

وبالجملة فإنَّ القارئ للكتابين يدركُ بوضوح أنَّه ثمَّةَ انحيازاً شعورياً مِن قِبَلِ كلٍّ من المؤلِّفين للأشخاص الذين تناولَهم في كتابه؛ فابنُ حبيبٍ انحازَ لهم على جهة القبول والتعاطف، أما ابن الجوزي فقد انحاز لهم على جهة النفور والاستياء والتحذير.

وفي حين نجد أن ابن حبيب قد اعتمد في ترتيب مجانينه على بلدانهم وطبقاتهم، فإنَّ ابنَ الجوزي رتَّب كتابَه حسبَ الطبقات الاجتماعية كالقضاة والوزراء والأئمة وغيرهم، وتعامل معهم على اعتبار أنهم طبقتان؛ الخاصَّة والعامَّة، وتدرَّج في بيان مراتب غفلتهم، فبدأ بالمغفلين من الجهلَة بكلام الله تعالى، ثم الجهلَة بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الجهلة بمصادر التشريع الأخرى، كما سبق بيانه في المباحث السابقة.

4.4. النساء في الكتابين

بالمقارنة بين النساء عند ابن الجوزي والنساء عند النيسابوري، نجد أنَّ النيسابوري أفرد للنساء المجنونات باباً خاصاً، وذكر منهن عشرة نساء، بينما أتى ابن الجوزي على ذِكْرِ النساء الحمقاوات في أبوابٍ متفرقةٍ من كتابه دون تمييزها في فصل مستقل.

وكان الرابط المشترك بين مجنونات النيسابوري هو العشق الالهي والزهد، بينما الحمقاوات عند ابن الجوزي يتميزن بالغفلة، وقلة الإدراك ومخالفة المنطق السليم.

وفي الوقت الذي يصدمنا التصرف اللا منطقي للحمقاء عند ابن الجوزي ــ وهي لاتدرك حمقها ــ من أمثال رَيطة بنت عامر التي كانت تُعلِّمُ رأسَ أولادِها بالقرَع لتعرفَ أولادَها مِن أولادِ غيرها،[1] فإننا نجد أنَّ مجنونات النيسابوري في كثيرٍ من الأحيان يدركنَ جنونهنَّ، ويختزْنَه لأنفسهنَّ، وتجري الحكمةُ على ألسنتهنَّ، وبذلك يصدقُ عليهنَّ تسميةَ عقلاء المجانين، ومِن هؤلاء تلك المرأة التي كانت تُعرَفُ بـ (حيونة) وقد طلعت عليها الشمس يوماً فآذتْها فقالت:

إنْ كنتَ تعلمُ أنّني بكَ وَالِهٌ فاصرفْ سمومَ الشمسِ عنّي سيدي

قالوا: فغُمَّتِ السماءُ في الوقت.

وصامت حيونة حتى اسودت، فعوتبتْ في ذلك، فرفعت طرْفها إلى السماء وقالت: قد لَامَنِي خلقُكَ في خدمتك، فوَعزَّتِكَ وجلالِكَ لأخدُمنَّكَ حتى لا يبقى لي عَصَبٌ ولا قَصَبٌ. ثم أنشأت تقول:

يا ذا الذي وعَدَ الرّضى لحبيبِه أنتَ الذي ما إنْ سِواكَ أُريدُ[2]

خاتمة

سعت المقالة إلى تسليط الضوء على ظاهرتي الحمق والجنون في العصر العباسي، كما سطَّرها كتابا أخبار "الحمقى والمغفلين" للامام ابن الجوزي، و"عقلاء المجانين" للامام النيسابوري رحمهما الله تعالى، من خلال الوقوف على تعريف هذه الكلمات كما وردت في كتابهما، ودوافعهما لتأليف هذين الكتابين، سواءً منها الظاهرة للقارئ كهدف الإمتاع والتسلية، أو التي يستطيع الباحث تلمسها من خلال قراءة متأنية كالنقد السياسي والاجتماعي والديني.

وأوضحت المقالة الفارق الأساسي بين الكتابين، فالنيسابوري انتقى مجانينه انتقاءاً دقيقاً، حيث امتازوا بالحكمة المتدفقة على ألسنتهم، والتقوى السارية في قلوبهم، وفي حين أنَّ حمقى ابنِ الجوزي كانوا على خلاف ذلك، فهم قليلو الإدراك، سريعو الإجابة، يمتازون بالجهل والتفريط في الدين واللغة وغيرها.

ونستطيع القول في نهاية المطاف أن كتاب النيسابوري حمل في طياته مديحا لشخصياته المجنونة، في الوقت الذي حمل كتاب ابن الجوزي ذمّاً لشخصياته الحمقى، ذمّاً شديداً يحمل السامع إلى السعي على اتّقاء هذه الصفات ومجانبتها.

وتدعو الباحثةُ الباحثينَ في التراث الإسلامي لتوجيه مزيدٍ من الاهتمام للمتون التي تناولتْ أخبارَ الحمقى والمجانين، لما حملتْ بين طيّاتها مِنْ محاولاتٍ للنقد الفكريّ والدينيّ والسياسيّ.

1 ابن الجوزي، *أخبار الحمقى*، 62.

2 النيسابوري، *عقلاء المجانين*، 124.

المراجع

- بدران، وليد بدران. "اليوم العالمي للصحة النفسية: قصة أقدم مستشفى للأمراض النفسية في العالم". BBC NEWS. الوصول 10-10-2021. https://www.bbc.com/arabic/science-and-tech-58856118
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. *أخبار الحمقى والمغفلين*، تحقيق: عبد الأمير مهنا، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1410هـ/1990م).
- ابن حبيب النيسابوري، الحسن بن محمد. *عقلاء المجانين*، تحقيق: عمر الأسعد، (بيروت: دار النفائس، 1407هـ/1987م).
- ابن حبيب النيسابوري، الحسن بن محمد. *عقلاء المجانين*، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ/1985م).
- خصخوصي، أحمد. *الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع*، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1413هـ/1993م).
- الديوب، سمر. "الثنائية وخطاب الحمق والجنون في التراث العربي". Hexa Times. الوصول 06-05-2023. https://hexatimess.com/articles-view.php?id=101
- الذهبي، محمد بن عثمان. *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ/1987م).
- الذهبي، محمد بن عثمان. *سير أعلام النبلاء*، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405هـ/1985م).
- الزركلي، خير الدين. *الأعلام*، (بيروت: دار العلم للملايين، 2002م).
- الصفدي، خليل بن أيبك. الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط ـ تركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث، 1420هـ/2000م).
- الضَّرَّاب، الحسن بن إسماعيل. *عقلاء المجانين والموسوسين*، تحقيق: إبراهيم صالح، (دمشق: دار البشائر، 1424هـ/2003م).
- أبو الطفيل، فيصل. "الحمق والجنون في مرايا الأدب العربي القديم". *قضايا الأدب*. 1/1 (كانون الأول 2016)، 67-78. https://www.asjp.cerist.dz/en/article/80301
- فوكو، ميشيل. *تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي*، ترجمة: سعيد بن كراد، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006م).
- قزيحة، رياض. *الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي*، (بيروت: المكتبة العصرية، 1998م).
- مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة. "عقلاء المجانين". الوصول يناير 1987. https://mbrf.ae/ar/read/content_aakla-almjanyn
- مراسلون. "الشافعي روى لـ300 شاعر مجنون والذهبي سمع نوادرهم.. مجانين العرب ثوار وأولياء وعاشقون". الوصول 10 أكتوبر 2019. https://mourassiloun.com/node/9823
- ابن منظور، محمد بن مكرم. *لسان العرب*، (بيروت: دار صادر، د. ت.).